الحياة العالمة في الساحل والصحراء
«من خلال أحمد بابا التنبكتي»

– أ.محمدن محمد التلميدي –

تمهيد

دخل الإسلام مبكرا إلى الشمال الإفريقي والصحراء الكبرى. وعلى الرغم من عدم وجود ذكر لمعارك لفتح الصحراء والأقاليم التي على حافتها الجنوبية خلافا لشمال إفريقيا فإن الإشارات إلى تقادم الوجود الإسلامي في الصحراء ووجوده في السودان الغربي الذي يشكل الامتداد الطبيعي لبلاد صنهاجة تطالعنا ابتداء من القرن العاشر الميلادي في بلاد صنهاجة وفي مملكة غانا. ويعزز هذه الإشارات وجود مسالك تجارة القوافل في الصحراء وما تحمله القوافل من علم بالإضافة إلى حمولتها التقليدية من البضاعة وكذلك وجود آبار في المسالك الصحراوية التي تتحدث عنها المصادر والتي يعزى حفرها إلى أحفاد عبيد الله الفهري.

كل هذه الإشارات وغيرها ولّد لدينا شعورا بأن هذا الفضاء كان وحدة دينية متحدة ساد فيها في النهاية نفس المذهب وسادت فيها نفس التقاليد الدراسية بحيث عزز ذلك تبادل المعرفة والخبرة الدينية والإفتائية. والعلم الذي نروم تقديمه يعتبر خير مثال يستدل به على هذه الوضعية. فهو متشبع من الثقافة العربية الإسلامية ومنتم إلى أقصى هذا الفضاء (السودان الغربي) وتبادل الرسائل العلمية مع علماء من الشمال الإفريقي (الجزائر بالخصوص) وترك موروثا علميا شاهدا على كل هذه الاهتمامات.

ولبلورة الصورة نورد نبذا من حياة أحمد بابا التمبكتي مركزين على دراسته وتدريسه قبل أن نلق نظرة على الصّلات العلمية بين علماء المنطقة في هذة الفترة.

I ــ حياة المؤلف:

1. إسمه، مولده، نشأته:

هو أبو العباس أحمد بابا بن أحمد بن الحاج أحمد بن عمر بن علي بن يحي بن كدالة بن بكي بن نيق بن لف بن يحي بن تشت بن تنقر بن جبراي بن اكنبر بن أنص بن أبي بكر بن عمر الصنهاجي الماسني التنبكتي المالكي[1].

ولد أحمد بابا في تنبكتوليلة الأحد الحادي والعشرين من ذي الحجة 963هـ/1556م في بيت علم وصلاح في أسرة آل آقيت في الاقيتين الذين توطنوا تنبكتوبعد نزوحهم من بيرو(ولاته حاليا) إلى بادية ماسينا حيث ضايقهم الفلان الذين كانوا يحذرون من الارتباط بهم عن طريق المصاهرة. ومن المعتقد أنهم قبل ذلك نزحوا في إطار الهجرة البطيئة في خضم الانتشار وبحثا عن مناطق أكثر استقبالاً[2] – أقل خشونة من الصحراء – وهي الهجرات التي بدأت منذ 3000 سنة قبل الميلاد والتي أثبتت الحفريات أنها انطلقت من ظهر تشيت والتي أعقبتها هجرات نرى أنها سلكت خطا من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، والذي كان السودان يمثل أولى مناطق الاحتكاك بين جنوب حافة الصحراء وشمال هذه الحافة. وتأسيسا على ما تقدم نعتبر الأقيتين فخذا من قبيلة إدولحاج التي تكونت في القرن 6هـ على يد رجال أبرزهم الحاج عثمان في وادان وهوالذي يعتقد أنه الأب الواهب لاسم القبيلة ولوأنه يبقى مستحيلا إرجاع نسب كل مجموعاتها إليه. وتتجلى الصعوبة لصاحبنا في رد نسبه للحاجيين إذا علمنا أنه ترجم لنفسه بالصنهاجي الماسني المسوفي وهي تحديدات تترك الاعتقاد بأنه منحدر من السكان الأصليين في الصحراء الذي يرجع عبد الرحمن بن خلدون (2، 3 – 1925) نسبهم إلى مجموعة لبرانس، ويقول المختار

1)* مدرس متعاون، كلية الآداب، جامعة نواكشوط

– البرتلي (محمد بن أبي بكر الصديق..)، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، تحقيق م ب الكتاني، م محي، دار المغرب الإسلامي، بيروت، 1981.

2)– نشير هنا إلى تلك الهجرات التي تجد مبرراتها في الظروف المناخية غير المواتية والتي يعبر عنها ب Péjoration

بن حامدن (ما نصه: «إدولحاج من مالي هم الاقيتيون خرج أسلفاهم قديما من وادان فنزلوا أولا كما في تاريخ السودان ربوة تسمى ماسنة وهي في أرض باغنة ثم خرج منهم محمد آقيت إلا بيروأي ولاته (حاليا) خوفا على بنيه أن يتناسلوا مع الفلان ثم خرجوا إلى تنبكتوحيث ثبت بنوه...»[1].

وقد حافظت الأسرة على مكانة مرموقة علميا وتجاريا وحتى سياسيا وتولى بعض أفرادها القضاء في تنبكتولقرنين فأكثر ابتداء من القرن 15م .

وفي هذا الجوالمملوء علما وأدبا نشأ أحمد باب وتربي بين أحضان أقاربه من الاتجاهين الأبوي والأمومي. أما بالنسبة لعقبة فإننا لم نعثر على ظلاله في المنطقة كما كان شأنه هوإلا أن محمود الزبير ذكر معلومات أشارت إلى أنه كان له ولد وبنت وتلك المصادر نذكرها كما وردت في كتاب أحمد بابا (1556 – 1627) حياته ومؤلفاته على شكل إشارات تاريخية:

تأتينا الإشارة الأولى مع أحمد المقري (ت1633) الذي يؤكد أنه عرف الولد الصغير لأحمد بابا ويدعى محمد ويضيف المرجع أنه مات في مراكش وهولا يزال شابا كما يذكر له إنتاج شعري جزيل يبين فيه تشوقه لوطنه تنبكتو. ويشير معاصر آخر لأحمد بابا هوعبد الرحمن التمنيارتي (ت1662) في معرض حديثه عن الإجازة التي وصلت من شيخه عن طريق المراسلة، إلى ابن أستاذه باسم محمد.

يذكر عبد الرحمن السعيدي في كتابه «تاريخ السودان» أن محمد السيد قابل الباشا المغربي عالي بن عبد القادر الذي لجأ إليه هروبا من أعداءه الذين هموا بقتله وتركوه في حرمة ابن أحمد بابا كما توجد إشارة على مخطوط لنيل الابتهاج (المكتبة الوطنية الفرنسية) تشير إلى أن كتابه زوج نانا عيشا وهوحفيد لأحمد بابا من بنت له كما أننا نجد إشارة في نفس المصدر لرحالة فرنسي زار منطقة تنبكتووهوالرحالة فليكس ديبوا Felix Dibois يقول فيها أنه التقي بأحفاد لأحمد بابا ويسجل أنه في القرن 19 وحتى القرن 20 ما زالت آثار منحدرين من أحمد بابا في تنبكتو[2].

1- الموسوعة: ج 4، ص8

2- MONTEIL V. ; L'islam noir، Seuil/Esprit، Pars، 1980، p.330.

وهكذا تكون هذه المعلومات تبعث على الاعتقاد أن أحمد بابا كان له عقب ورثوه.

وإذا كانت هذه محاولة لإعطاء نبذة عن حياة أحمد بابا فكيف كانت دراسته وما هوإنتاجه وكيف كان تدريسه؟

2. دراسة أحمد بابا

حفظ أحمد بابا القرآن الكريم وهوفي مقتبل عمره وحفظ كذلك أمهات من الكتب وهولا يزال في بيته ثم قرأ النحوعلى عمه أبي بكر وعن والده أخذ الحديث والمنطق سماعا. وتعمق في بعض المتون فقرأ الرسالة لابن أبي زيد القيرواني تفقها وقرأ مقامات الحريري، وقرأ على شيخه محمد بغيع، الذي لازمه سنوات عديدة التفسير والحديث والفقه والأصول والعربية والبيان. فنراه يقول: (...فختمت عليه مختصر خليل بقراءتي وقراءة غيري عليه ثمان مرات، وختمت عليه الموطأ قراءة تفهم وتسهيل وابن مالك قراءة بحث عدة مرات قراءة تحقيق، وألفية العراقي بشرح مؤلفها، وتلخيص المفتاح بمختصر السعد مرتين، وصغرى السنوسي، وشرح الجزائرية له وحكم ابن عطاء الله، مع شرح زروق لها، ونظم ابن مقرع، والهاشمية في التنجيم مع شرحها، ومقدمة التاجوري فيه، ورجز المفيلي في المنطق، والخزرجية في العروض بشرح الشريف السبتي وكثيرا من تحفة الحكام لأبي عاصم مع شرحها لابنه كلها بقراءتي، وقرأت عليه فرعي ابن الحاجب قراءة بحث جميعه وحضرته في التوضيح لم يفتني منه إلا من الوديعة إلى الأقضية وكثيرا من المنتقي للباجي، والمدونة بشرح أبي الحسن الزويلي، وشفاء عياض وقرأت عليه صحيح البخاري نحوالنصف، وسمعته بقراءته، وكذلك صحيح مسلم كله ودولا من مدخل ابن الحاج ودروسا من الرسالة والألفية وغيرها، وفسرت عليه القرآن العزيز، إلى أثناء سورة الأعراف، وسمعت بلفظه جامع المعيار للونشريسي كاملا وهوسفر كبير و موضع آخر منه)[1].

1)- التنبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج في تطريز الديباج، طربلس، 1997، ص42.

3. أساتذته:

كانت دراسة أحمد بابا على والده أحمد بن الحاج أحمد بن عمر بن محمد آقيت (929-991)، وقد ترجم له في كتابه «نيل الابتهاج» ونقل عبد الرحمن السعدي هذه الترجمة في كتابة «تاريخ السودان»[1] وقال عنه: «كان أصوليا بيانيا منطقيا مشاركا.. يغلظ على الملوك فمن دونهم وينقادون له أعظم الانقياد ويزورونه في داره، ولما مرض في كاغ[2] في بعض أسفاره كان السلطان الأعظم «أسكيا داوود» يأتي إليه بالليل فيسهر عنده حتى برئ»[3].

عرف بشغفه بجمع الكتب ووفرة الخزانة محتويه على كل علق نفيس وكان سموحا بإعارتها أخذ عن عمه محمود بن محمد آقيت وغيره، رحل إلى المشرق عام 956 حاجا واجتمع بعلماء منهم الناصر اللقاني والشريف يوسف تلميذ السيوطي والجمال الشيخ بن زكريا والأجهوري والتاجوري، ولازم أبا المكارم محمد البكري وقفل راجعا إلى بلده فدرس فيه. وكان من جملة تلاميذه أبوالعباس أحمد بابا الذي درس عليه القرآن وبعض الأمهات ويقول أحمد بابا: «وحضرت عليه أشياء عدة وأجازني جميع ما يجوز له وعنه وسمعت بقراءته الصحيحين والموطأ والشفاء».[4]

2.3 دراسته على عمه:

درس أحمد بابا على عمه الرجل الصالح أبي بكر المعروف ب: «بابكر بير بن الحاج أحمد آقيت» كما ضبطه عبد الرحمن السعيدي، العالم الزاهد، الذي هاجر بعياله إلى الديار المقدسة للجوار في آخر أيامه حيث مات، وأخذ عليه أحمد بابا النحوأساسا، ألف أبي بكر في التصوف وغيره ومن مؤلفاته «معين الضعفاء» كما ذكر ذلك صاحب الترجمة في نيل الابتهاج.

1)- السعدي الشيخ عبد الرحمن، تاريخ السودان، م.س.ذ، ص42، وكذلك البرتلي (محمد بن أبي بكر الصديق..) فتح الشكور م.س.ذ.،ص 30
2)- قرية من إقليم تنبكتو
3)- المصدر السابق، ص48
4)ـ نفس المصدر، ص43

3.3 دراسته على محمد بغيع:

درس صاحبنا أحمد بابا على محمد بغيع وهومحمد بن محمود بن أبي بكر الونكري التنبكتي عرف بـــ «بغيع» كما نقلها عبد الرحمن السعدي[1] عن الذيل، ولد في تنبكتو (930هـــ) ودرس فيها وبلغ من العلم مبلغا عظيما، عاصر والد أحمد بابا وهوفقيه عالم متعبد، حج وأخذ عن أعلام عصره في المشرق كما في المغرب. لازمه صاحبنا أكثر من عشرين سنة وأخذ عنه الكثير وأجازه بخطه في «جميع ما يجوز له وعنه»، وقد كانت له معه موافقات عرض عليه فيها بعض تآليفه فسر بها وقرظ عليها بخطه وحتى أنه كتب عنه عديد أشياء من أبحاثه نقل بعضها في دروس لإنصافه وتواضعه وقبوله الحق أين ما كان، ويذكر أحمد بابا أنه رآه مرة يوم الواقعة عليهم في تنبكتو. كانت صحبته له أكثر ملازمة أشتهر بها وتوفى محمد بغيع رحمه الله (1002هـــ) قبل عودة أحمد بابا من المغرب بسنتين.

4.3 دراسته عـــلى العاقب:

أخذ أحمد بابا أيضا عن قاضي تنبكتوفي زمانه العاقب بن محمود بن عمر بن محمد آقيت الصنهاجي (990-313هـــ) الذي أجازه كل ما يجوز له وعنه وهوالشيخ الذي أدى فريضة الحج وكانت فرصة له لقي خلالها الناصر القاني وأبا الحسن البكري والشيخ البشكري وطبقة من فقهاء المشرق.

4. محنة أحمد بابا:

تعرض أحمد بابا إلى محنة في قومه وموطنه السودان على يد الباشا محمود زروق أحد قواد حملة السلطان السعدي أحمد الذهبي وهي الحملة الثانية[2] التي نجحت في النهاية في السيطرة على مملكة السونغاي في بداية العقد الأخير من القرن 16م، وكان محمود طلب من أحد مساعديه أن يتولى عنه مهمة توقيف[3] آل آقيت ريثما يصل من أحدى مغازيه إلى تنبكتو، فاعتذر ذلك القائم لجسامة المهمة وللمكانة التي كانت

1)ـــ السعدي الشيخ عبد الرحمن،تاريخ السودان، م س د، ص45
2)- MONTEIL V. ; Op.cit..176
3)- عبد الرحمن السعدي، م. س. ذ.، ص46

عند آل آقيت في تنبكتو وهم أسرة علم ورياسة احتفظت بالصدارة في ذلك القضاء على مدى قرنين ويزيد.

ولما حضر الباشا محمود دبّر حيلة لأخذهم فأفشي أنه سيقوم بتحقيق على إثره يسجن كل من وجد عنده مال (ذهب أوغيره) وأن منازل الفقهاء مستثنية من ذلك وكانت العملية غدرا لأن التفتيش طال منازل آل آقيت وكان ذريعة مباشرة لإلقاء القبض عليهم، إلا أن السبب الخفي هوالمعارضة البينة لفقهاء تنبكتولشرعية الحملة على إقليم مسلم وما تلا ذلك من تصرفات الباشا جودر والباشا محمود من بعده والتي تجد مبررها فيما يبدو في محتوى المقابلة التي أجراها أحمد بابا مع المنصور أحمد الذهبي والتي صارت شهيرة فيما بعد[1].

5. جلوسه للتدريس وذكر بعض من أخذ عنه

أورد أبوبكر الصديق البرتلي الولاتي (1981)[2] في باب ترجمة أحمد بابا ما نقله عن صاحب الترجمة في معرض حديثه عن نفسه حيث قال: (ولما خرجنا من المحنة «أي السجن» طلبوا مني الإقراء فجلست بعد الإباية بجامع الشرفاء بمراكش من أنوه جوامعها، اقرأ مختصر خليل قراءة بحث وتدقيق، ونقل وتوجيه وكذلك تسهيل ابن مالك وألفية الحديث للعراقي، فختمت على نحو عشر مرات، وتحفة الحكام لأبي عاصم، وجمع الجوامع للسبكي وحكم بن عطاء الله، والجامع الصغير للجلال السيوطي قراءة تفهم مرارا والصحيحين سماعا وإسماعا مرارا ومختصرهما، وكذلك الشفاء والموطأ والمعجزات الكبرى للسيوطي وتماثل الترمذي، والإكتفاء لأبي الربيع الكلاعي وغيرها..)

ويظهر من خلال ما ذكره الشيخ أنه كان يدرس المتون المشهورة في المغرب الإسلامي عامة إبان القرن العاشر الهجري وخاصة منها الفقه المالكي باعتباره هوالمذهب السائد الذي توطدت عراه بعد اختفاء المذهب الشيعي الذي كان الفاطميون روجوا له في هذه المنطقة ابتداء من القرن الثالث الهجري. وتجدر الإشارة

1)- الناصري الاستقصا في تاريخ المغرب الأقصى ـــ ج ـــ دار الفكر المغرب
2)- فتح الشكور في معرفة أعيان تكرور، تحقيق م ب الكتاني، م محي / دار المغرب الإسلامي 1981 بيروت، ص343

إلى أن المقرر في الدراسة الإسلامية واللغوية لا يكاد يختلف سواء في تنبكتو، أو في فاس ومراكش وتوات والقيروان، كما يظهر من خلال الاستشهاد أن نمط التدريس ـــ الإلقاء على شكل محاضرات والجواب على الاستفسارات والحوار وغيره ـــ هو نفسه في هذه المناطق وهونفس المنهج المعروف في بلاد السودان ولا زال معمولا به حتى الآن في بلاد شنقيط.

ولا شك أن المدرسة التي أخرجت أحمد بابا هي بحق جامعة راقية في مصاف الزيتونة وغيره من قلاع العلم المنتشرة حينها.

كما أن أحمد بابا أجاز كثيرا من فقهاء المغرب الأقصى والمغرب الأوسط ورد على كثير من الأسئلة بأجوبة صنف أكثرها على الرغم من مشاغله في إقامته القصيرة خارج وطنه كما أنه نصّب نفسه مدرسا بعد عودته إلى تنبكتو.

يبقى أن نحاول البحث في الذين أخذوا عنه العلم؟

من الصعب تقصى كل من أخذ عن أحمد بابا إلا أنه بإمكاننا إيراد جملة من الذين أخذوا عليه بالاعتماد على الزبير خاصة بمراكش وهم على التوالي:

- محمد بن يعقوب الأيسى المراكشي
- ابن القاسم أبي النعيم الغساني قاضي الجماعة بفاس
- أبوالعباس القاضي، قاضي مكناسة
- الرجراجي مفتي مراكش، عبد الرحمن التمنارتي (الذي أجازه مراسلة) وغيرهم كثير وإن كانت لم تصلنا أسماؤهم وخاصة من درسه بعد عودته إلى السودان في مطلع القرن 11هـــ ولم نقف لهم على ذكرى في التواريخ المحلية.

وقراءة في مراتب هؤلاء الطلبة المذكورين تثير لدينا الاعتقاد بأن صاحبنا كان على درجة علمية كبيرة لأن طلابه لم يدرسوا عليه إلا لحاجة في طبيعة المادة التي يتوفر عليها والمعارف التي استقاها ولا غرور لأن السودان الغربي وإن كان على اتصال دائم بالشمال الإفريقي في طريق القوافل ـــ إلا أن مؤثرات من الشرق الإسلامي كانت تصله دائما عن طريق الحجاج تارة وعن طريق الزوار –السيوطي مثلا – وكذلك

عن طريق الهجرات البطيئة التي لا تكاد تظهر لنا، ومما يدعم ذلك أصول أغلب السكان في المنطقة والتي ترجعها أغلب المصادر المتوفرة إلى العرب والمصريين[1].

6. مؤلفات أحمد بابا:

اختلف في عدد مؤلفات أحمد بابا التنبكتي وقد أورد صاحب فتح الشكور منها تسعة وثلاثين وقال محمود أ.الزبير(1977م)[2] أنها بلغت 56 عنوانا إلا أنه لم يورد منها إلا بضعا وثلاثين. ومهما يكن فإن إنتاج أحمد بابا الفكري كان غزيرا كما أن طبيعة المصنفات وكثرة الأجوبة وتشعبها يترك الاعتقاد بالباع الواسع الذي تضلع من علوم جمة. ويعتقد أن جل أعماله فاز بها تلامذته الذين لازموه وأخذوها عنه خاصة الفترة الأخيرة التي قضاها في بلاده ولعل ذلك ما يفسر انتشار مؤلفاته في السودان والصحراء حيث أن كتبه موجودة في بعض المكتبات الخاصة في موريتانيا في المدن التاريخية كتيشيت وولاتة[3].

ونورد هنا ما توفر لدينا من مؤلفاته ومصنفاته حسب الجدول التفصيلي التالي:

الغرض	عنوان المؤلف	عدد الأسطر والكراسات	الملاحظات
العقيدة:	- المأرب والمطلب	كراسة	
	أعظم أسماء الرب: فتح الصمد الفرد الصمد في معنى محية	كراسة	
	- الله تعالى للعبيد - نزول الرحمة في التحدث بالنقمة	1 كراسة	
في الحديث والسيرة	- نيل الأمل في تفضيل النية على العمل (في شرح حديث نية المؤمن)	-	

1)- ZOUBER M.A.، Ahmed Baba de Tombouctou 1556 – 1627 : Sa vie et son œuvre، Maison neuve et Larousse، Paris، 1977، p192.

2)- ZOUBER M.A.، Op.cit.، p194

3)- كمصنف أحمد بابا النبكتي الموسوم «الكشف والبيان في أصناف مجلوب السودان» وهي نسخة أصلية مودعة أصلا في مكتبة أهل الشيخ المستعين وقد صورها المعهد الموريتاني للبحث العلمي من مدينة تيشيت وتحت رقم 388 – 464 بعنوان «مفتاح الصعود إلى نيل حكم مجلب السود» ويرجع نسخها لسنة 1189هـ.

	– غاية الأمل في تفضيل النية على العمل	–	
	– المنهج المبين في شرح حديث		
	– أولياء الصالحين المحيين		
	– المبذور المفسرة في شرح حديث الفطرة		
	– خمائل الزهر، في كيفية الصلاة على سيد البشر	2 سفر	
	– الدر النضير في ألفاظ الصلاة على البشير النذير	1 كراسة	
في الفقه:	– المقصد الكفيل بحل مقفل خليل (شرح مختصر خليل من الزكاة إلى أثناء النكاح)	1	
	– سنن الرب الجليل في تحرير مهمات خليل	1	
	– تنبيه الواقف على تحرير وخصخصة نية الحالف		
	– أفهام السامع بمعنى قول خليل في النكاح بالمنافع	عدة كراريس	لم يكتمل
	– فتح الرزاق في مسألة الشك في الطلاق	1 كراسة	
	– أنفس الأعلاق في فتح الاستقلال من كلام خليل في درك الصداق	1	
	– الزند الواري في مسألة تخير المشترى	1	
	– الكشف والبيان في حكم أصناف مجلوب السودان أوممراح الصعود إلى نيل حكم مجلب السود	1	
	– اللمح في الإشارة في حكم الطبخ	سفر1	
	– ترتيب جامع المعيار للونشريسي	كراسي2	
	– أجوبة الأسئلة المصرية – دور الوشاح بفوائد النكاح	كراسة1	لم يكتمل
	– جلب النغمة لمجانية الظلمة	كراسة1	لم يكتمل
	– ما رواه الروات في مجانية الولاة	كراسة1	
	– نيل المراد ببيان حكم الإقدام على الدعاء بما هي إيهام فتح القدير للعاجز الفقير في الكلام على دعاء محمد بن حمير.	وريقات	
تاريخ وسير	– تحفة الفضلاء ببعض فضائل العلماء		

	– مرآة التعريف في فضل فن العلم الشريف		
	– دور السلوك بذكر الخلفاء وأفاضل الملوك		
	– نيل الابتهاج بالذيل على الديباج		
	– كفاية المحتاج في معرفة من ليس في الديباج		
	– ترجمة السنوسي		
في اللغة والنحو:	– تعليق على أوائل الألفية		
	– النكت الوافية بشرح الألفية		
	– النكت الزكية		
	– غاية الإجادة في مساواة الفاعل للمبتدئ في شرط الإفادة		
	– النكت المستجادة في مساواتها (المبتدأ والفاعل) في سر الإفادة...		
	– التحديث والتأسيس في الاحتجاج بابي احريس		

7– نسب أحمد بابا:

ينتمي الفقيه أحمد بابا التنبكتي إلى الاقيتيين كما هومعروف وهم مجموعة قادمة إلى تنبكتو التي لم تشهد إعمارا يذكر قبل القرن 5هـ، ومن المعروف أن آل آقيت ترددوا كثيرا قبل الاستقرار في تنبكتوخوفا من أن يختلطوا بالفلان كما أشار إلى ذلك محمود كعت، ورجعوا من بانة إلى ولاتة قبل أن تعمر تنبكتو وتصبح حاضرة مأمومة. ونعتقد أن هذه التقلبات في الهجرة والهجرة المعاكسة ناتجة عن التقلبات المناخية التي كانت تفسر الانتقال إلى الجنوب في فصل الصيف والرجوع إلى الديار عند الخريف لما تخضرّ المراعي الأصلية، ويمكننا أن نستشف تحركا بطيئا لكنه دائب من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي يمكن أن تشهد عليه آثار وجود زنوج على

ظهر تكانت[1] كما يشهد عليه وجود أولاد أمبارك في كارطة والزاوية الكنتية في تنبكتولاحقا.

وباعتبار أن قبيلة إدولحاج (الحاجيين) الذين ظهروا بوادان في القرن الخامس الهجري على يد الحاج عثمان ورفقائه[2] والذين لا تختلف قبيلتهم في أصول تكوينها على ما نعتقد عن باقي القبائل المعروفة في هذا الفضاء من حيث أنها تكتسب اسمها من رجل واهب وتشمل شتاتا لا ينحدر بالضرورة من عصبية واحدة وحواشي ومستوطنين ولائذون ومحتمون إلى غير ذلك.

ومن هذا المنطلق فإن الوجود الحالي لأسر أوقيتية في وادان والذي يرجعه عبد الرحمن السعدي (1665م) إلى مبعوث من أسرة آل آقيت إلى السلطان المغربي والذي توقف في وادان واستقر فيها فيما بعد لا نعتبره نحن إلا قديما، ذلك أن إرجاع أحمد بابا نفسه نسبة إلى المسوفيين الصنهاجيين المسنيين لا ينفي كونه من الحاجيين لأن المسألة في الأساس مسألة انتماء، والمعروف عند المختار ولد حامدن النسابة والمؤرخ الموريتاني الشهير (1993م) أن الإقيتيين من قبيلة إدولحاج[3] وحتى نتوصل إلى ما ينفي هذه الوضعية التي تعتمد على وحدة الفضاء الجغرافي والثقافي وقوة الصلات فإننا نتمسك بانتماء المجموعة التي ظهرت في حواضر السودان إلى أصولها العربية الصنهاجية في بلاد الملثمين عموما وبلاد شنقيط على وجه الخصوص.

II ــ الصلات الثقافية والعلمية بين السودان والشمال الإفريقي (توات نموذجا):

1.الملامح العامة للحياة السياسية والفكرية في السودان الغربي[4] في ق10هـ/16م:

1)- VERNET R. (Textes rassemblés par L'archéologie en Afrique de l'ouest : Sahara et Sa-hel، Nouakchott، CRIAA/SEPIA، 2000، 323 p..

2)- ولد حامدن المختار، موسوعي حياة موريتانيا، ج2، الجزء الجغرافي، تونس، 1993، ص43

3)- ولد حامدن المختار، م.س.ذ.، ص 44.

4)- إقليم السودان أوبلاد السودان أوبلاد التكرور كما يسميها البعض هي الأرض. أطلق عليها العرب (أرض السود) قديما وبلاد السود أوبلاد السودان في القرون الوسيطة وتعني أرض السودان وهومصطلح عام يطلق على المنطقة الواقعة بين الصحراء والغابات المدارية الممتدة بين الأطلسي حتى شواطئ البحر الأحمر وعرضه مئات الأميال تتألف أراضيه من تضاريس منخفضة بشكل عام. كما أن السودان تطلق على جميع البقاع التي يقطنها السود في قارة إفريقيا وقد جرى العرب على إطلاقها وكذلك الأوروبيين على ذلك الجزء من إفريقية الذي تقلقل فيه الإسلام مبكرا. وتقسم هذه المنطقة من الناحية العملية إلى السودان الغربي الذي يمتد من بحيرة تشاد شرقا إلى المحيط الأطلسي والسودان الشرقي ويمتد من

لقد شهدت إمبراطورية السونغاي في القرن السادس عشر ميلادي ازدهارا عظيما تحت حكم الاسكيين وبسطت نفوذها على مساحة شاسعة من إفريقيا الغربية (بلاد السودان) فأخضعت بنفوذها دولا تدفع غرامات للمركز (جاوا) كما لعبت حواضر السودان كغيرها من الحواضر في هذه الفترة دورا بارزا في التجارة عبر الصحراء التي كانت تمثل شريان تدفق مواد التبادل في الاتجاهين وكذلك المؤثرات الثقافية وهجرات معتبرة. وحصل هؤلاء الملوك على ثروات طائلة من حبوب وماشية وغيرها و لم تغن هذه الخيرات من زيادة الضرائب على المدن التجارية، وابتكر السلطان في سونغاي تجارة الذهب والعبيد وحتى الملح ـــ مملحة تغازة ـــ قبل أن يدخلها السلطان أحمد المنصور الذي لقب فيما بعد بالذهبي بعد أن تمت له السيطرة على السودان الغربي في نهاية الألفية الأولى للهجرة. وبوصول السعديين إلى السودان الغربي حصل تراجع في تلك الحياة السياسية الزاهية وظهرت دويلات وثنية تنبذ الإسلام والمسلمين وكثرت الحروب والإغارات والسبي ومن ثم الاسترقاق.

وكانت تنبكتومسقط رأس أحمد بابا، حاضرة التجار والعلماء من كل بلد من وغدو ثم أهل تلك الجهة كلها، بعد خراب بيرو (ولاتة) التي حييت تنبكتو على أنقاض مجدها، كما عرفت تنبكتو بجوامعها التي من أشهرها جامع صانغوري الذي تخرج منه علماء وقضاة كبار من أمثال عمر بن محمد آقيت والقاضي محمود الذائع الصيت وصاحبنا أحمد بابا نفسه الذي تولى التدريس في جامع الشرفاء بمراكش كما تولى الإفتاء والتصنيف، وبإمكاننا إضافة أصحاب تواريخ تنبكتو وخاصة عبد الرحمن السعيدي كما حصلنا على نسبه من اسم أسرته ونعتقد أن ما أصاب نسبه

بحيرة تشاد إلى شواطئ البحر الأحمر. وبالنسبة لنا فإن السودان الغربي أوبلاد السودان هي المنطقة من جنوب الصحراء إلى منطقة الغابات جنوبا ومن بحيرة تشاد إلى المحيط الأطلسي غربا وهي تسمية المرادفة في نظرنا لبلاد التكرور وتشمل في نظرنا القضاء الشنقيطي الذي ظهر في القرون الوسطى.

تسكن في هذا الفضاء شعوب مختلفة من البربر والعرب وخاصة الشعوب الزنجية كما يحوي هذا الإقليم خيرات عديدة من حبوب ومياه ومعادن من أهمها الذهب والملح.

وقد شهد هذا الفضاء عدة تنظيمات سياسية في القرون الوسطية كما أنه شهد في نهاية هذه الفترة عدة نزاعات وعدم استقرار كان وراء كثرة الحملات العسكرية والغارات والسبي والنهب، انظر في هذا الصدد: كعت محمود، تاريخ الفتاش، م س ذ، ص63 البرتلي، فتح الشكور م.س.ذ.، 1981.

(السعدي) إنما هوراجع إلى الترجمة عند المستشرقين وهي التي لم تراجع حتى الآن. وكانت مدارس تنبكتو وغيرها من الحواضر السودانية تعتمد تدريس الأصول من كتاب وسنة كما تعتمد تدريس الفقه المالكي صرفا باعتباره المذهب المتداول في ذلك الفضاء. وهنا لا يسعنا إلا أن نذكر ما كان من صلات بين وادان وتيشيت وولاتة مع حواضر الجنوب بالاضافة إلى علاقاتها بالشمال الافريقي عموما وسجلماسة واتوات وتيندوف على وجه الخصوص. فتسمية الرجال المنحدرين من هذه المدن في مناصب ومراتب إمامة وتدريس في تنبكتووجني وغيرها كما أن البرتلي يذكر مناولة بعض طلبة العلم من الجنوب للدراسة في ولاتة – بيروسابقا – كما أن مادة التدريس كما بيّنها محمود كعت (1981) لا تقل أهمية عما كان عليه الدرس في الشمال الإفريقي عموما. ولعل الرجوع إلى أحمد بابا في مسألة فقهية باعتباره فقيها مالكيا يكفي للتدليل إلى ما آل إليه هذا التدريس من شمولية وارتباط بالمتون المقررة في الحواضر الإسلامية حينها. كما أن رجوع أحد فقهاء توات[1] وهوالعالم سعيدي إبراهيم التونسي الأصل التمنطيطي[2] الوطن إليه في اشكال حول مسألة معروفة يبين الأزمة الحاصلة في فقه النوازل وهذه القضية بالذات هي التي أراد الفقه الحضري التوسع في أخبارها فكان الجواب على شكل مصنف مكتمل مما يترك الاعتقاد بأن للجنوب الصحراوي السوداني، الأقل تحضرا، فقها يوازي الفقه الحضري بإمكانه الإضافة حتى يتم التغلب على بعض المسائل المطروحة. ويبقى أن نشير هنا إلى أن الفقه البدوي استطاع استحداث أحوال تتعلق بالمكايل مثلا ومنها ما يتعلق بالحريم والحسبة ونظام الملك ولّدت اجتهادات في الجنوب وهي التي يعرفها الشيخ محمد

1)- توات واحة في الجنوب الشرقي في المغرب الأقصى (الجزائر حاليا) ومقدم سؤال من اتوان مؤشر يدل على أن مسألة الرق وشرعية ملك الأشخاص كانت بحاجة إلى مزيد من التناول بداية القرن 11هـ وهي التي كانت مدعاة لكثير من الفتاوى في المغرب الأقصى وفي السودان ولمزيد من التوضيح يرجع إلى:
ـ الناصري الشيخ أبوالعباس، أحمد خالد ـ الاستقصا في أخبار دول المغرب الأقصى، ج5، دار الكتاب، الدار البيضاء 1955، ص 98 وما بعدها.

2)- سعيد إبراهيم هوعالم تونسي قدم إلى توات في القرن 10هـ واستقر بها وهو صاحب التدريس في تمنطيط، وصل إلى مقام عال في العلم وكان قد راسل أحمد باب التنبكتي حول مسألة أحوال الرقيق الذين كانوا موجودين بكثرة في الحواضر الصحراوية في جنوب الجزائر حينها. وطمنطيطي هي نسبة إلى طمنطيط وهي الحاضرة الصحراوية الزاخرة بالعلم والتجارة في نهاية القرن 10هـ / 11هـ في الجنوب الجزائري والتي كانت مقر الفقيه السائل.

المامي[1] بفقه البادية، كما كانت هذه المسائل يومية تفرض وجود تبصر وتقليد واع من لدن الفقهاء .

2. الصلات العلمية بين الحواضر في الشمال الإفريقي والساحل والصحراء:

تعددت الصلات بين افريقيا الغربية (الساحل والصحراء) والشمال الافريقي. ففضلا عن الصلات التجارية التي توطدت مليا في مواقع أخرى فإن الصلات الفكرية والدينية ظلت حية بين الفضائين.

ولعل أجوبة عبد الكريم المغربي لآسكيا الحاج محمد في نهاية القرن الخامس عشر ميلادي[2] والأسئلة الكثيرة التي وجهها هذا الأخير لكثير من الفقهاء هي خير دليل على تلك الحاجة الماسة في تداول الفقه في هذا الفضاء. ويشير محمد اليدالي إلى أنّ: (الاعتماد على إمام واحد مطلقا في جميع المسائل كما جرت به العادة اليوم في الامتناع من الخروج عن مذهب مالك فليس بمخلص من الورع)[3]. وبما أن ظروف البدووالظعن والهجرات تطرح مسائل جديدة نرى أن فقهاء السودان بلغوا درجة عالية في معالجتها ويظهر ذلك من خلال السؤال الأول لصاحب توات والذي يبين فيه مكانة السودانيين في منظومة الفقه المالكي، ولم تخرج مسألة مصنف «مجلوب السودان» لأحمد بابا التنبكتي عن هذا السياق لأن الأجوبة المتحصل عليها قديمة حديثة. ذلك أن أحمد بابا استطاع بعد تحر دام ثلاث سنين، أن يجمع ما يسوغ رأي الإسلام من ورع وتعفف وتحر في الأصول قبل أن يصدر حكما لا شك أنه كان بالإمكان الحصول عليه في مواطن السؤال أي في اتوات وتمنطيط، فكان الجواب مبينا لأحوال المنطقة من الناحية السياسية ومن الناحية التاريخية وهي الأحوال التي تبنى عليها الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للساكنة ثم تستنبط منها الأحكام الشرعية باعتبار القواعد الفقهية في منظومة الفقه المالكي.

1)- عالم وفقيه شهير من موريتانيا. له كتاب في الفقه الملكي أسماه: كتاب البادية يركز في بدايته على ضرورة استمرار الاجتهاد لمواجهة المسائل المستجدة. ولهذا الكتاب نظير معرف ب: كفاف المبتدئ للعالم محمد مولود ولد أحمد فال اليعقوبي.

2)- المغيلي التلمساني الشيخ محمد عبد الكريم، أجوبة المغيلي عن أسئلة الحاج محمد أسكيا، دار جامعة أوكسفورد للنشر، 1984، (حققها وعلق عليها وترجمها إلى الإنجليزية الدكتور جون هنويك).

3)- اليدالي محمد، الذهب الإبريز في تفسير كتاب الله العزيز، مخطوط، مكتبة خاصة.

وهكذا نمت وتعززت صلات فكرية وعلمية بين الفضائين ساهمت في إبقاء مشعل الإسلام موقودا في هذه الديار النائية ومكّن من تبادل الخبرات والتصانيف في شتى المجالات.

ومن المؤكد أن تركيزا أكثر على هذه الصلات قد يفتح سبلا بحثية جديدة تساعد على فهم كثير من الظواهر المشتركة بين شعوب الفضائين.